التغيير الحضاري من منظور المفكر الجزائري مالك بن نبي

د. عبد الرحمان تركي
قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الوادي

الملخص:

انتهج مالك بن نبي منهجا واقعيا اجتماعيا في فلسفته وفكره حول التغيير الحضاري، حيث انطلق في تأملاته وأبحاثه وكتاباته من المجتمعات العربية والإسلامية، والتي تتجلى فيها كل الصعوبات والتحديات التي تواجه التغيير، رغم امتلاكها منظومة عقائدية وأخلاقية وفقهية مقتبسة من الوحي الإلهي، تضمن لها التقدم والسعادة في الدارين إن هي التزمت بمبادئها وسارت في ضوء هديها.

كما استفاد ابن نبي من العلوم والتجارب التي عاشها على امتداد عقود من القرن العشرين، وجعلها شواهد وأمثلة لتأملاته، وأخذ بها على سبيل الاستدلال ليقارنها بوقائع التاريخ وخاصة التاريخ الإسلامي.

واطّلع على الثقافة الغربية على أسسها وأهدافها، مما جعله يقارن بين المجتمعات الغربية (الأوربية والأمريكية) والمجتمعات العربية والإسلامية، هذه المقارنة – التي قامت كذلك على التجربة الميدانية والملاحظة المباشرة – كشفت له عن أسباب تخلّف العالم الإسلامي وسوء موقفه اتّجاه الحضارة الغربية المتطورة وعدم استفادته من منجزاتها وتقنياتها.

وأكدّ ابن نبي على الاتجاه النفسي والاجتماعي في تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[1]، حيث رأى أنه دعوة إلى تغيير الإنسان من أجل تغيير جماعته، لأن الإنسان هو أساس التغيير وهدفه، كما رأى أنه دعوة إلى البدء بتغيير ما بالنفس، فإذا تغيرت نفس الإنسان تغير محيطه وتغيرت حياته وأمته [2].

فالتغيير الاجتماعي كما يرى لا يخضع لقوانين سحرية مبهمة مجهولة الأسباب وإنما يخضع لتغيير النفوس، ويضرب لهذا مثلا بقانون الجاذبية الذي طالما قيّد الإنسان بحتمية التنقل برا أو بحرا ولم يتخلص الإنسان من هذه الحتمية بإلغاء القانون ولكن بالتصرف مع شروطه الأزلية بوسائل جديدة تجعله يعبر القارات والفضاء كما يفعل اليوم [3].

في هذه المداخلة نحلل رؤية ابن نبي للتغيير الحضاري، ونقارنها باجتهادات العلماء المصلحين كمحمد عبده وعبد الحميد بن باديس، وذلك على ضوء قوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[4].

---

[1] – الرعد 11.

[2] – ابن نبي : **ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية 1974م، ص 73.

[3] – ابن نبي : تقديم كتاب (**حتى يغيروا ما بأنفسهم**) لجودت سعيد، المطبعة العربية، غرداية، الطبعة الأولى 1990م، ص 10، 11.

[4] – الرعد 11.

المداخلة:

تعريف التغيير:

يقال التغيير على وجهين [1]:

أحدهما لتغيير صورة الشيء دون ذاته، يقال غيّرت داري إذا بنيتها بناء غير الذي كان.

والثاني لتبديله بغيره نحو غيّرت دابتي إذا أبدلتها بغيرها، وفي هذا المعنى يأتي قوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [2].

وردت كلمة التغيير في القرآن، في قوله تعالى: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ)[3].

جاء في (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي تفسير قوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [4] بأن الله أخبر في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب، كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أُحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم، وليس معنى الآية أنه ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، كما قال صلى الله عليه وسلم وقد سئل أَنَهلِك وفينا الصالحون ؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[5].

أما تفسير قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ) [6] فهو أنه إذا أراد الله بقوم بقوم هلاكا أو عذابا أو بلاء فلا مرد له، وقيل إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، وما لهم من ملجأ أو ناصر يمنعهم[7].

ووردت كلمة التغيير كذلك في قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[8].

---

[1] – الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد) : **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق مصطفى بن العدوي، مكتبة فياض، مصر، ط1، 2009، ص 468.

[2] – الرعد 11.

[3] – الرعد 11.

[4] – الرعد 11.

[5] – القرطبي : **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة 1965، ج9، ص 294.

[6] – الرعد 11.

[7] – القرطبي : **المرجع السابق**، ج9، ص 294، 295.

[8] – الأنفال 53.

وجاء في (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي تفسير الآية بأنها تعليل، أي أتاهم العقاب وأزيلت عنهم النعم لأنهم غيروا وبدلوا، ونعمة الله على قريش السعة والأمن والعافية، وقيل: نعمة الله عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به، فنقل إلى المدينة وحلّ بالمشركين العقاب [1].

تحليل رؤية ابن نبي للتغيير:

مالك بن نبي من رواد الفكر الإسلامي، ومن أعلام الفكر البشري العالمي، مثّل تجربة في التفكير ومنحى في الاجتهاد والتجديد والإصلاح، ورؤية خاصة إلى الشريعة والحياة والكون، واتسم بخطاب عقائدي مستند إلى الوحي والعقل.

وهو ممن تفخر بهم الجزائر لأنه وهب نفسه وقلمه لخدمتها وإصلاح شؤونها مستفيدا من فكره وثقافته ومن رحلاته المتعددة واتصالاته بالمفكرين الغربيين والمسلمين.

ولمكانة الدين في فلسفته وفكره فهو يرى أن لا حضارة بلا دين، وأن كل حضارة لابد لها من دين يكون السبب في تطورها وسيادتها، ويقرر أن سبب أفول أي حضارة إنما يرجع إلى تخليها عن دينها.

ويرى أن عقيدة المؤمن اليوم فقدت فعاليتها وحرارتها، وبذلك يجب تجديد الصلة مع الله وإعمار القلب بحبه والأنس به، كما يجب نبذ ما شاب العقيدة من بدع وأوهام وما أصابها من جمود وتقليد دون بصيرة ولا وعي، والمؤمن اليوم في فكر مالك بن نبي مسلوب الحضارة لا يمكنه القيام بإنجاز العمل الحضاري إلا إذا تغير في عقيدته وتفكيره وفي صلته مع الله تعالى واتجه إلى الفكر والعمل وفق مقتضيات الحاضر والمستقبل.

أُعجب ابن نبي بحركة الإصلاح التي قام بها العلماء الجزائريون كما أُعجب بزعماء الإصلاح في العالم الإسلامي كجمال الدين الأفغاني [2] ومحمّد عبده [3] ورشيد رضا [4] الذين دعوا إلى التّجديد الفكري والاجتهاد العقلي ودفعوا

---

[1] – القرطبي : **المرجع السابق**، ج8، ص 29.

[2] – جمال الدين الأفغاني (1838م – 1897م) : هو محمد بن صفدر، فيلسوف الإسلام في عصره وأحد الذين قامت على سواعدهم سواعدهم النهضة العربية الحديثة، ولد في أسعد آباد (أفغانستان) ،تلقى العلوم العقلية والنقلية، سافر إلى الهند والآستانة ومصر، أنشأ مع محمد عبده في باريس جريدة العروة الوثقى، كان عارفا بعدة لغات واسع الاطلاع، من مؤلفاته: رسالة الرد على الدهريين. (الزركلي : الأعلام، ط3، ج7، ص 37، 38).

[3] – محمد عبده (1849م – 1905م) : مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، تعلم بالجامع الأحمدي بطنطا ثم بالأزهر وعمل في التعليم وكتب في الصحف، شارك في مناصرة الثورة العرابية فسجن ونفي إلى الشام سنة 1881م، أصدر مع أستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة العروة الوثقى، تولى منصب القضاء بعد عودته إلى بلده.(الزركلي : الأعلام، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة السابعة 1986م، ج6، ص 252).

[4] – هو محمد رشيد بن علي رضا (1865م – 1935م)، صاحب مجلة المنار وأحد رجال الإصلاح، من الكتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام)، ثم رحل إلى مصر فاتصل بمحمد عبده وتتلمذ له وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع التي عاصرها، توفي بالقاهرة، من أشهر آثاره مجلة المنار والوحي المحمدي والخلافة.(خير الدين الزركلي : الأعلام، دون ذكر دار الطبع أو النشر، الطبعة الثالثة، ج6، ص 361، 362).

الأمّة إلى تغيير ما بها من استعمار و تخلّفٍ و انحطاط، غير أنّ ابن نبي يرى أنّ المسلمين الذين استيقظوا على أصوات هؤلاء المصلحين وتوجّهوا في طريق الحضارة لم يحدّدوا هدف توجّههم ولا معالم الطريق الذي يسيرونه [1].

واطّلع ابن نبي على الثقافة الغربية على أسسها وأهدافها، مما جعله يقارن بين المجتمعات الغربية (الأوربية والأمريكية) والمجتمعات العربية والإسلامية، هذه المقارنة التي قامت كذلك على التجربة الميدانية والملاحظة المباشرة كشفت له عن أسباب تخلّف العالم الإسلامي وسوء موقفه اتّجاه الحضارة الغربية المتطورة وعدم استفادته من منجزاتها كما استفادت اليابان.

لذلك فهو يدعو إلى أن نميز في اقتباسنا أو تأثرنا بأوربا بين عالمين عالم الاكتشافات والعلوم والتكنولوجيا، وعالم العقائد والأخلاق والقيم، فنأخذ بالأول، لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذ بها، ولأنه عالم يستند إلى العقل البشري بغض النظر عن الديانة أو العرق أو اللون، أما الثاني فقد أغنانا الإسلام وأبان لنا وجه الحق في هذا المجال، يقول ابن نبي: "إن أوربا حققت المعجزات في عالم الاكتشافات وعالم العلوم... ولكنها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروح عليها ويرفه عنها ويسندها في وقت المحن لأنه يربطها بوجود الله، إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ في النفوس المتعطشة، النفوس المنتظرة للمبررات الجديدة... فيجب أولا أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود"[2].

ألّف ابن نبي مؤلفات عديدة كلها تقريبا تعالج موضوع تغيير الواقع في العالم الإسلامي، والذي تعاني بلدان منه الأمية والفقر، كما تعاني أخرى عدم الاستثمار الأمثل للثروات والطاقات، من هذه المؤلفات:

1 . شروط النهضة: ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ،دار الفكر بيروت الطبعة الثالثة 1969 م:

يبحث الكتاب المشكلات والوقائع الاجتماعية، كما يبحث دور الفكرة الدينية كعامل اجتماعي مؤثّر في توجيه التاريخ معتمداً على دور الفكرة المسيحية في تركيب الحضارة الغربية ومعتمداً على الاعتبارات النفسية والاجتماعية للأمم والمجتمعات[3].

وكتاب (شروط النهضة) مرتبط بكتاب (الظاهرة القرآنية) الذي سبقه في الصدور من حيث أنّ الفكرة الدينية لا تقوم بدورها الاجتماعي إلاّ بقدر ما تكون متمسّكة بقيمها الغيبية ومبادئها العقدية. ويبحث الكتاب كذلك مكونات الحضارة من الإنسان والتراب والزمن، ودور المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي في بناء الحضارة وتركيبها، ويبين الكتاب أسباب تدهور المجتمع الإسلامي المعاصر ومظاهر تخلفه وانحطاطه مبرزا المراحل التاريخية التي مرّ بها (مرحلة الروح – مرحلة العقل – مرحلة الغريزة)، ومقياس القيم النفسية والاجتماعية الدالة على أحوال تطوره وما آل إليه اليوم من هيمنة الغرب عليه ماديا وفكريا[4].

---

[1] – ابن نبي : **وجهة العالم الإسلامي**، ص 50، و**تأمّلات**، ص 164.

[2] – ابن نبي : **دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين**، دار الفكر، دمشق، 1989م، ص 43، 44.

[3] – ابن نبي : **شروط النهضة**، ص 12، 13.

[4] – ابن نبي : **شروط النهضة**، ص 15، 65، 99.

2 – وجهة العالم الإسلامي: ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق طبعة 1985م:

هذا الكتاب أهم كتاب عند مالك بعد (شروط النهضة) [1]، قدّم له محمد المبارك سنة 1959م، ومما قال: "لا تجد لهذا الكتاب خصوصا وكتب مالك عموما شبيها في كتب المشارقة من أبناء البلاد العربية الذين لا يزال أكثر كتابهم يقفون من الحضارة الأوربية موقفا آخر هو موقف التلميذ المعجب الذي لم ينقض إعجابه والمستجدي لأفكارها ومقاييسها لأنه لم يعرف منها إلا مظاهرها ...إنك حين تقرأ هذا الكتاب تشعر أنك لست تقرأ كتابا ولكنك تعيش مأساة أمة وتعيش معها خلال عشرة قرون أو أكثر، وتمر بعقد قصتها خلال هذه القرون"[2].

وتزامن صدور الكتاب عن مالك مع اندلاع ثورة نوفمبر التحريرية لذلك كان ابن نبي فيه مفعما بالمشاعر الوطنية مكبرا في الشعب الجزائري كفاحه ونضاله من أجل البقاء والحرية، وواثقا بأنه سيصل إلى النصر والاستقلال لأن قضيته عادلة وكفاحه مقدس، ومبرزا ما في نفسه من عواطف صادقة وأحاسيس ملتهبة اتجاه ما يعانيه العالم الإسلامي اليوم.

وطريقة المؤلف في الكتاب **وجهة العالم الإسلامي** لا تقوم على سرد التفاصيل والحوادث بل على تحليل عميق – أعانه عليه ثقافة قوية واطلاع واسع – لمراحل التاريخ وسير المدنية وتطورها، وهو يقسم تاريخ المجتمع الإسلامي إلى ثلاث مراحل: أولاها مرحلة الإسلام الأولى وهي أقوى المراحل في حيويتها وخصبها وتنتهي في معركة صفين وثانيتها مرحلة المدنية الإسلامية وهي مرحلة التفكير والازدهار الحضاري وتنتهي بسقوط دولة الموحدين، وثالثتها مرحلة الجمود والانحطاط، ويخصّها بالعناية لأنّها المرحلة التي لا نزال نعيش في رواسبها وآثارها [3].

كذلك الكتاب يتحدث عن مواصفات الفكر الإسلامي في عصوره الذهبية ويخصّ نزعته الإنسانية وأثره في الحضارة الغربية الحديثة ويذكر ابن نبي أنّه استفاد من كتاب المستشرق الانكليزي هاملتون جب[4] (الاتجاهات الحديثة في الفكر الإسلامي) في دراسته للأمراض شبه الصبيانية في العالم الإسلامي[5].

---

[1] – فضيل بومالة : **ترجمة عبد الصبور شاهين لأعمال مالك بن نبي في الميزان**، الشروق الثقافي العدد 15، من 4 إلى 11 نوفمبر 1993م، ص 6، عمود 1.

[2] – محمد المبارك : مقدمة كتاب (**وجهة العالم الإسلامي**) لابن نبي، ص 10.

[3] – محمد المبارك : مقدمة كتاب (**وجهة العالم الإسلامي**) لابن نبي، ص 10، 11.

[4] – جيب هاملتون (1895م – 1971م) : مستشرق انكليزي، ولد في الاسكندرية (مصر)، دخل جامعة ادنبره حيث تخصص في اللغات السامية العربية والعبرية والآرامية، صار أستاذا للغة العربية بجامعة لندن ثم بجامعة اكسفورد، وعمل مديرا لمركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة، إنتاجه يتوزع بين الأدب العربي والتاريخ الإسلامي والأفكار السياسية في الإسلام. (عبد الرحمان بدوي : **موسوعة المستشرقين** ،ص 174، 175، ونجيب العقيقي : **المستشرقون**، ج2، ص 129، 130، 131).

[5] – ابن نبي : **وجهة العالم الإسلامي** ص 18، تناول المستشرق جيب هذه الأمراض والمساوئ كالتعصب والتقليد والجمود الفكري والاندفاع العاطفي الانفعالي الذي يشدد على تمجيد الماضي في كتابه (الاتجاهات الحديثة في الإسلام) ولاسيما في الفصل السادس منه وهو بعنوان (الإسلام في العالم) (جيب هاملتون : **الاتجاهات الحديثة في الإسلام**، ترجمة هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة بيروت، طبعة 1966م.)

3 . آفاق جزائرية: ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية:

اشتمل الكتاب على ثلاث محاضرات ألقاها ابن نبي سنة 1964م، المحاضرة الأولى وعنوانها (مشكلة الحضارة) ألقاها بالجزائر العاصمة [1]، وتحدث فيها عن مفهوم الحضارة مستندا إلى العلوم الإنسانية وما أنتجته الحضارة الغربية، وتطرق إلى تحليل مفاهيم التخلف والنمو والشيئية والتكديس والبناء، وتحدث أيضا عن أسباب ضعف المجتمع الجزائري وتفكك أوصاله بفعل الاستعمار وفقده للدوافع الوجودية الباعثة نحو العمل و بذل الجهد، وعن الحركة الوطنية و دورها في توعية الإنسان الجزائري أخلاقيا وسياسيا، وخصّ بالحديث تاريخ الحركة الإصلاحية بالجزائر وارتباطها بالوقائع الاجتماعية والسياسية وآثارها الثقافية.

جاءت دراسات ابن نبي متنوعة تنوع مصادره المعرفية، فإلى جانب قراءاته المتعددة ودروس أساتذته وتوجيهاتهم، إلى جانب هذا فقد كانت معظم مصادره في المعرفة حسية ميدانية كتأملاته في الحياة وأحداثها وتنقلاته وأسفاره واحتكاكه بأصناف متنوعة وعديدة من البشر ومشاهداته الكثيرة للممارسات الاستعمارية ضد الجزائريين وسعيه الدؤوب ومعاناته اليومية لطلب الرزق وكسب العيش، لذا كان متشعب الفكر متعدد المعارف والموضوعات فكان السياسي والمؤرخ، وفيلسوف الحضارة [2].

والتزم ابن نبي بمنهج واقعي في فلسفته الاجتماعية إذ اتخذ من المجتمع واقعا متعينا ومنطلقا لبحثه وتأمله، ومن العلوم التي استفادها والتجارب الشخصية الممتدة على أكثر من نصف القرن العشرين الميلادي شواهد موضوعية لتأملاته، وأخذ هذه التجارب على سبيل الاستدلال ليقارنها بحوادث التاريخ وخاصة التاريخ الإسلامي، كما اتخذ من تجارب الشعوب قديمها وحديثها ومعاصرها شواهد موضوعية لفهم فلسفة الحضارة [3].

كما اتجه اتجاها وجدانيا في تأكيده على مكان الإيمان من الإنسان ومن الحضارة، إذ الإيمان كما يقول أساس العمل والمنبع الوحيد للجهد والطاقة، والوسط الاجتماعي الذي يفتقد الإيمان القوي يصير فيه كل عمل عقلي أو بدني لا قيمة له[4].

---

[1] – ابن نبي : **آفاق جزائرية**، ص 23.

[2] – ميلود جغام : **مؤثرات أذكت فكر مالك بن نبي**، الشروق الثقافي العدد 15، من 04 إلى 11 نوفمبر 1993م، ص 12، 13.

[3] – حمودة سعيدي : **مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة إشراف د. عمار طالبي، معهد الفلسفة ،جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1984م – 1985م (مخطوط)، ص 119، ويحياوي (محمد) : **مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، إشراف د. أحمد موساوي، معهد الفلسفة، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1991م – 1992م (مخطوط)، ص 39.

[4] – ابن نبي : **وجهة العالم الإسلامي**، ص 27.

يؤكد على هذا الاتجاه في تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[1]، حيث يرى أنه دعوة إلى تغيير الإنسان من أجل تغيير جماعته، لأن الإنسان هو أساس التغيير وهدفه، كما يرى أنه دعوة إلى البدء بتغيير الباطن قبل الظاهر فإذا تغير باطن الإنسان تغير ظاهره وتغيرت حياته وأمته [2].

فالتغيير الاجتماعي كما يرى ابن نبي لا يخضع لقوانين سحرية مبهمة مجهولة الأسباب وإنما يخضع لتغيير النفوس، ويضرب لهذا مثلا بقانون الجاذبية الذي طالما قيّد الإنسان بحتمية التنقل برا أو بحرا ولم يتخلص الإنسان من هذه الحتمية بإلغاء القانون ولكن بالتصرف مع شروطه الأزلية بوسائل جديدة تجعله يعبر القارات والفضاء كما يفعل اليوم [3].

وفي هذا المعنى يأخذ ابن نبي بالقواعد الأساسية في التغيير الاجتماعي فكما أن التغيير يبدأ من الذات المغيرة التي تريد التغيير وليس من الذات التي يراد تغييرها، كذلك فإن التغيير يبدأ من داخل النفس، وحين يتغير ما بالنفس فإن الجو سيتهيأ للتغيير[4]، وإذا كان الإنسان بحالة يعجز فيها عن الاستفادة من الشيء الذي بين يديه فإنه لا يستطيع بذل جهد فعال في التغيير، وحالة العجز هذه تنتج عن الحالة النفسية والفكرية التي يعيش عليها الإنسان الكَل الذي (أينما توجهه لا يات بخير)[5]، لا لأن الخير غير موجود ولكن وضعه هو الذي يعجزه أن يأتي بخير [6].

وبهذا فإن رؤية ابن نبي للتغيير تقوم على إعطاء الأولوية للجانب الباطني الروحي[7]، لأن هذا الجانب هو أساس التغيير الاجتماعي، كما تدل على أنه (أي ابن نبي) لا يتوقف عند ظواهر الأمور والقضايا وإنما يسبر أغوارها ويكتنه خفاياها.

---

[1] – الرعد 12.

[2] – ابن نبي : **ميلاد مجتمع**، ص 73.

[3] –مالك بن نبي: تقديم كتاب (**حتى يغيروا ما بأنفسهم**) لجودت سعيد، المطبعة العربية، غرداية، الطبعة الأولى 1990م، ص10، 11.

[4] – جودت سعيد : **مفهوم التغيير**، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى 1995م، ص 38، 39، و**حتى يغيروا ما بأنفسهم**، ص 15.

[5] – (أينما توجهه لا يات بخير) جزء من قوله تعالى : (وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) النحل 76.

[6] – جودت سعيد : **الإنسان حين يكون كَلاّ وحين يكون عدلا**، المطبعة العربية، غرداية، الطبعة الأولى 1990م، ص 19.

[7] – الجانب الباطني في المعرفة أفاض فيه الفلاسفة الإسلاميون، فالنفس عند الكندي في حالات التطهر والصفاء والصقل في هذه الدنيا وفي حالة ما بعد الموت تتلقى المعرفة وتكتسبها مع فارق أنها في هذه الحالة تتلقى من العالم الفوقي المجرد من كل مادة وبدرجة أكبر من الصفاء مما هو في حالة تلقيها وتأثرها بالمحسوسات والمعقولات، فكأن النفس عين مرة تنظر إلى أسفل ومرة إلى أعلى أو كأنها مرآة ذات وجهين وجه يعكس الموجودات العليا وآخر الأسفل يعكس المحسوسات ومعقولاتها.(حسام محي الدين الآلوسي : **فلسفة الكندي**، ص 43)، أما ابن سينا فالمعرفة عنده تجريد وتذكر وفيض، تجريد النفس للمعقول من المحسوس وتذكر للمعاني والمثل التي سبق أن رأتها في عالم المعقولات، وفيض من واهب الصور على النفس، والصفة الرئيسية لهذه المعرفة أنها معرفة بالواسطة وليست مباشرة، فالنفس بعد أن هبطت إلى العالم الأرضي لم يعد من حقها ولا أصبح في قدرتها أن تدرك المعاني أو الصور القائمة في العالم القدسي، وإدراكها لهذه المعاني أو الصور يتوقف على مايفيض به عليها العقل الفعال (واهب الصور) من صور تقشع الحجب التي تكتنفها.(يحي هويدي : **دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية**، ص 279).

والمتأمل لعنصر الإنسان في ضوء النظرة الشمولية المتكاملة لمؤلفات ابن نبي يقف عند فكرة أساسية تتمثل في أن هذا الأخير (الإنسان) هو في نظره منبع وأساس المشكلة الحضارية كلها، وأي تفكير في مشكلته هو في الأساس تفكير في مشكلة الحضارة، غير أن مشكلة الإنسان تختلف باختلاف البيئة التي يعيش فيها ومعطياتها، فالفرد في المجتمع البلجيكي مثلا يعيش في حياته حالة عدم توازن اقتصادي ناجم عن عدم الملاءمة بين حاجاته وتيار الإنتاج الصناعي السريع أي حالة حركة مضطربة، في حين يوجد حسبه (أي ابن نبي) العكس في المجتمع الإسلامي، إذ المشكلة هنا ليست في الحركة وإنما في الركود إنها مشكلة الفرد المنتمي إلى هذا المجتمع والذي عزف عن الحركة واستقال من وظيفته الأساسية وظيفة السير في ركب التاريخ [1].

وبالنسبة للفعل الإنساني المتميّز ذي الأثر الحضاري يرى ابن نبي أنّ أوربا حقّقت المعجزات في عالم الاكتشافات وعالم العلوم، ولكنّها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروّح عليها ويرفّه عنها ويسندها في وقت المحن لأنّه يربطها بوجود الله فإذا أراد المسلم .كما يؤمن ابن نبي . أن يسدّ الفراغ في النفوس المتعطّشة فيجب أوّلا أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود، إلى ربّانية الوجود، ولا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله [2].

خلاصة:

نقول إن ابن نبي رأى ضرورة التركيز على تجديد صلة الإنسان بالله وإحياء معاني صفاته العليا وأسمائه الحسنى في النفس، وفي مجال المعرفة آمن ابن نبي بأهمية ترابط المعارف الحسية والعقلية والوجدانية للمضي نحو الحقيقة في كل تجلياتها العلمية والدينية والفلسفية، وتكلم في التصوف وفضله على الكلام في معالجة القضايا الإيمانية النفسية، وردّ فكرة وحدة الوجود التي تقوم على أساس التوحيد بين الخالق والمخلوق، وانتقد التصوف الذي ينتهي بالسلبية والخمول والجمود العقلي، كما رأى وجوب تسخير الإنسان ما في الكون لفائدته ومصلحته وذلك بالنظر إلى الأشياء والظواهر نظرة علمية لا نظرة استهلاكية، والاطلاع على أسباب ومراحل تطور الحضارة الغربية المعاصرة.

تحليل رؤية محمد عبده للتغيير:

كان الشيخ عبده مصريا أزهريا، ومصر منذ عهود سحيقة أمة زراعية مرتبطة بالأرض، أي أنها كانت على طول التاريخ مجتمعا يتكون فيه الفرد وسط جماعة، فهو لذلك مزود بغريزة الحياة الاجتماعية، والأزهر من ناحية أخرى كان يمد الحياة الاجتماعية بعقليات مستمسكة بدينها ثابتة على أصولها [3].

---

[1] – لحرش موسى: إشكالية الحضارة وأزمة مجتمعات العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي (المجتمع الجزائري نموذجا)، رسالة لنيل شهادة دكتوراه الدولة ،(مخطوط) ،ص 185، 186،187.

[2] – ابن نبي : **دور المسلم ورسالته**، ص 39.

[3] – ابن نبي : **وجهة العالم الإسلامي**، منشورات ANEP، الجزائر، 2005م، ص 47.

وبهذا التكوين واجه الشيخ عبده مشكلة الإصلاح، فبعد أن أدرك حقيقة المأساة التي يعانيها العالم الإسلامي وجد من الضروري أن ينظر إليها كمشكلة اجتماعية [1].

وعند تفسير قوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[2]، وقوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ)[3]، يقول محمد عبده: "أرشدنا الله سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومُحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنّها الله على أساس الحكمة البالغة.

إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهية وخفض عيش وأمن وراحة، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله، فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء، لعدولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة.

حادوا عن الاستقامة في الرأي والصدق في القول والسلامة في الصدر والعفة عن الشهوات والحمية على الحق والقيام بنصره والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية، وأتوا عظائم المنكرات.

خارت قواهم فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها، سنة ثابتة، لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال "[4].

ومن خلال هذا القول يعتقد محمد عبده أن التغيير الحقيقي ينطلق من الإنسان الذي إذا تحلى بالفضائل والقيم والمثل من الصدق والعدل والاستقامة وأداء الأمانة والتعاون على البر والتقوى، فإن حياته ستتجه نحو الخير والسعادة، وجماعته نحو القوة والعزة والرفاهية.

يرى ابن نبي أن الفضل في نشأة الحركة الإصلاحية واتجاهها الذي اصطبغت به يعود إلى تلك الاستعدادات الأصيلة لدى محمد عبده، الذي استوحى من بيئته الاجتماعية وتعليمه الأزهري حلول المشكلات التي واجهته، والذي كان يعلم علم اليقين أنه لكي يتحقق الإصلاح يجب أن يبدأ خطوته الأولى من الفرد، ووجد أساس هذه الفكرة في قوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [5][6].

---

[1] – ابن نبي : **المرجع نفسه**، ص 47.

[2] – الرعد 11.

[3] – الأنفال 53.

[4] – محمد عبده : **دروس من القرآن**، دار إحياء العلوم، بيروت، ط4، 1987م، ص 157، 158.

[5] – الرعد 11.

[6] – ابن نبي : **وجهة العالم الإسلامي**، ص 48.

غير أن ابن نبي ينتقد محمد عبده حين رأى أنه من الضروري إصلاح علم الكلام بوضع فلسفة جديدة حتى يمكن تغيير النفس، كما ينتقده حين غلب جانب العقل على جانب الوحي في بعض آرائه وتفسيراته مما يتعارض والمبدأ الرئيسي في حركة الإصلاح، وهو مبدأ الرجوع إلى السلف الصالح من الصحابة والتابعين والاقتداء بهم [1].

في رأي ابن نبي أن المسلم ما بعد الموحدين لم يتخلّ مطلقا عن عقيدته، فلقد ظل مؤمنا متدينا، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي، فالمشكلة بحسبه ليست في أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الايجابية وتأثيرها الاجتماعي [2].

وهنا أرى أن العقيدة التي يحملها المسلم في عصور الانحطاط شابها الكثير من الانحرافات والمجادلات التي حادت بها عن منهج الكتاب والسنة، وجعلها أقرب إلى المناظرات العقلية الجامدة التي يتبادلها الفلاسفة، والتي لا ينبني عليها أي عمل.

فالمسلم في تلك الفترة لا يملك تلك العقيدة الصافية النقية، وإلا لم تفقد إشعاعها الروحي والاجتماعي.

وفي سبيل إيضاح أن الإسلام دين التقدم والازدهار والحضارة رد محمد عبده على جابرييل هانوتو السياسي الفرنسي الذي عاصره، زعم هانوتو أن حالة التأخر التي يعاني منها المسلمون ترتد في نهاية التحليل إلى العقيدة الإسلامية نفسها، إذ في الوقت الذي أنتجت فيه المسيحية المدنية الحديثة برمتها لم ينتج الإسلام إلا تقهقرا وانحطاطا، وفي رأيه أن العقيدتين الأساسيتين اللتين يمكن أن يُعزى إليهما هذا الانحطاط هما على وجه التحديد عقيدة التوحيد الخالص وعقيدة القدر، أما عقيدة التوحيد فإنها بتقريرها للقدرة والعظمة اللامتناهيتين والعلو المطلق لله، تضع الإنسان في درك الوجود وتدفعه بالتالي إلى إغفال شؤون نفسه وبث القنوط في فؤاده وإيهان عزيمته في الدنيا، أما عقيدة القدر فإنها تلغي إرادة الإنسان وتشلّ فعاليته وترد وجوده إلى العدم[3].

كان رد محمد عبده حاسما وعنيفا، فأولا: ليس ثمة علاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة، لأن الإنجيل قد أمر أهله بالانسلاخ من الدنيا والزهادة فيها وأوصى بأن يجعل ما لله لله وما لقيصر لقيصر، ومن العسف أن يقال إن مدنية الملك والسلطان والذهب والفضة هي مدنية أصلها المسيحية، وثانيا: عاب القرآن صراحة على أهل الجبر رأيهم وأنكر مقالتهم وأثبت الكسب والاختيار، وما قرره من إحاطة علم الله وشمول قدرته فلا يلغي قوة التمييز والاختيار عند الإنسان، وثالثا: إن التنزيه الإسلامي لا يعني إطلاقا قطع الصلة بين العبد وربه، فهو على العكس من ذلك تماما قد قرب العبد من الله حين ألغى كل واسطة بينهما وجعل الإنسان مستعدا بملكاته الذاتية إلى الارتقاء إلى أسمى درجات الكمال التي يمكن أن تدركها الطبيعة الإنسانية، ورابعا: ليس الإسلام ديانة روحانية مجردة خالصة، وإنما هو أكثر من ذلك، حقا إنه حياة روحانية وجدانية، لكنه أيضا وبالمقدار نفسه انخراط في الزمان والدنيا، يحث المسلمين على جلائل الأعمال

---

[1] – ابن نبي : **وجهة العالم الإسلامي**، ص 48.

[2] – ابن نبي : **وجهة العالم الإسلامي**، ص 48.

[3] – فهمي جدعان : **أسس التقدّم عند مفكري الإسلام**، المؤسسة العربية للدرسات والنشر، بيروت، ط2، 1981م، ص 202.

الدنيوية والأخروية على حد سواء، وهذا هو ما أتاح له بناء مدنية شاملة ارتقت بأربابها ارتقاء لم يعرف التاريخ له مثيلا[1].

ومع ذلك اعترف محمد عبده في رده على هانوتو، وكذلك في رده على فرح انطون الذي زعم في سياق الكلام على ابن رشد أن الإسلام قد اضطهد العلم والفلسفة في الوقت الذي تسامحت فيه المسيحية معهما فأنتجت المدنية الحديثة، اعترف بأن خللا قد حدث اعتقادات المسلمين أدى إلى حالة الانحطاط التي ترين على حياتهم منذ قرون، ولكن سبب هذا الانحطاط لا يرجع بأي حال من الأحوال إلى طبيعة الدين الإسلامي نفسه، الذي لا يمكن إلا أن يكون حافزا على التمدن والتقدم كما كان الحال في بدايات الإسلام حين كانت المعتقدات سليمة صحيحة [2].

فالانحطاط والجمود إذن لا يعودان إلى طبيعة الإسلام، وإنما عرضا على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم [3].

فحين تقرّر أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم، بحيث توقف الفكر وتجمدت العقول، وأنه لا نظر للعامة في الشؤون العامة، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه، وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ليس من صنع الحكام، وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصّة نفسه، حين تقرر هذا كله في النفوس والأفئدة وهنت العزائم وثبطت الأنفس وغلت الأيدي عن العمل وسادت حالة اليأس[4].

تحليل رؤية ابن باديس للتغيير:

يقسّم ابن باديس العباد إلى أربعة أقسام [5]:

1 - مؤمن آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة.

2 - ودهري تارك لها، فهذا شقي فيهما.

3 - ومؤمن تارك للأسباب، فهذا شقي في الدنيا وينجو – بعد المؤاخذة على الترك – في الآخرة.

4 - ودهري آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا ويكون في الآخرة من الهالكين.

ويدعو ابن باديس المسلمين ويحذرهم من الافتتان برؤية حالهم من التخلف وحال من لا يدين دينهم

---

[1] – فهمي جدعان : **المرجع نفسه**، ص 202، 203.

[2] – فهمي جدعان : **المرجع نفسه**، ص 203.

[3] – فهمي جدعان : **المرجع نفسه**، ص 204.

[4] – فهمي جدعان : **المرجع نفسه**، ص 205.

[5] – ابن باديس : **تفسير ابن باديس**، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2006، ص 40.

من التقدم المادي والصناعي، لأن ذلك لم يكن بسبب إيمانهم، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو من ضعف الإيمان، ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة [1].

أتى ابن باديس على هذه المعاني في تفسير الآيات التالية:

1 - قوله تعالى: (مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا)[2].

2 - قوله تعالى: (وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ)[3].

3 - قوله تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [4].

هذه الآيات أفادت أن الأسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها موصلة بإذن الله تعالى من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه، بمقتضى أمر الله وتقديره وسننه في نظام هذه الحياة والكون، ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدّق المرسلين [5].

وعند تفسير قوله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا)[6] يقسم الأمراض الإنسانية إلى قسمين: أمراض الأرواح، وأمراض الأبدان، وأمراض الأرواح ترجع إلى نوعين: مرض العقول ومرض النفوس.

فالأول بجمود النظر وفساد الإدراك وتقليد الآباء واعتقاد الباطل والشك في الحق.

والثاني بفساد الأخلاق وانحطاط الصفات، أما الأعمال فهي تابعة لهما فتصلح بصلاحهما وتفسد بفسادهما، والقرآن قد جاء داعيا إلى النظر والتفكر والاعتبار والتدبر، مبينا بما ساق من حجج الله وحجج رسله الطريق الأقوم في الإدراك الصحيح والسبيل الأشد في الفهم والتفهيم، ناعيا على المقلدين تقليدهم كاشفا لأهل الباطل عن باطلهم، وجاء مبينا للأخلاق الفاسدة وذاكرا سوء أثرها وقبح مغبتها، ومبينا كذلك الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها وحسن عاقبتها، فهذا شفاؤه للنفوس والعقول، وهو راجع إلى تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، وبهما سلامة الأرواح وكمالها، وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها [7].

---

[1] – ابن باديس : **المرجع السابق**، ص 40.

[2] – الإسراء 18.

[3] – الشورى 21.

[4] – هود 15، 16.

[5] – ابن باديس : **المرجع السابق**، ص 39، 40.

[6] – الإسراء 82.

[7] – ابن باديس : **تفسير ابن باديس**، ص 129.

يعتبر ابن باديس من الناحية الإصلاحية مصلحا سلفيا باقتفائه أثر السلف الصالح، ودعوته للعودة بالإسلام إلى منابعه الأولى الكتاب والسنة النبوية، ووضع ابن باديس يده على بيت الداء الذي كانت تعاني منه الأجيال العربية، وذهب في ذلك مذهب محمد عبده الذي كان يرى بأن إصلاح النفوس إنما يكون بإصلاح برامج التعليم [1].

ولكي يكون التعليم صالحا يجب أن يشمل الأهداف التالية [2]:

1 - تكوين الشخصية المتكاملة على المستويين الشخصي والاجتماعي.

2 - محاكاة الأمم الراقية في تقدمها، وبلوغ الغاية في المعارف والصنائع.

3 - تغيير الواقع المتخلف للشعوب العربية، وذلك بتكوين جيل جديد ناشئ على أساس القرآن وتوجيهه.

4 - تحرير الفكر الإسلامي من البدع والخرافات، وتحرير العقل من الجمود والتقليد.

وفي إطار التعليم يفرق ابن باديس بين الإسلام الذاتي والإسلام الوراثي، الإسلام الوراثي هو أن يولد المرء من أبوين مسلمين، يشب ويكتهل ويشيخ وهو يعد من المسلمين، تجري على لسانه وقلبه كلمات الإسلام، وتباشر أعضاؤه عبادات وأعمالا إسلامية، لكنه لم يتعلم يوما شيئا من الإسلام ولا عرف شيئا من أصوله في العقائد والأخلاق والآداب والأعمال، ولم يتلق شيئا من معاني القرآن العظيم ولا أحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فهذا مسلم أخذ الإسلام كما وجده من أهله، ولابد أن يكون بحكم الوراثة قد أخذه بكل ما فيه مما أدخل عليه وليس منه من عقائد باطلة وأعمال ضارة وعادات قبيحة[3].

هذا النوع من الإسلام لا يمكن أن ينهض بالأمم، لأن الأمم لا تنهض إلا بعد تنبه أفكارها وتفتح أنظارها، والإسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر [4].

أما الإسلام الذاتي فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله، ويتفقه حسب طاقته في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويبني ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبيحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان وعمل، ومحبته للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان كما هي بمقتضى الشعور والوجدان [5].

ونتوصل إلى تحقيق هذا الإسلام بالتعليم، فلا يكون المسلم مسلما حتى يتعلم الإسلام، والمسلمون أفرادا وجماعات مسؤولون عن تعلم وتعليم الإسلام للبنين والبنات، للرجال والنساء، كل بما استطاع والقليل من ذلك خيره كثير [6].

---

[1] – أحمد الخطيب : **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 124، 125.

[2] – أحمد الخطيب : **المرجع السابق**، من ص 125 إلى ص 132.

[3] – ابن باديس : **آثار الإمام عبد الحميد بن باديس**، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1، 1985م، ص 123، 124.

[4] – ابن باديس : **المرجع نفسه**، ص 124.

[5] – ابن باديس : **المرجع نفسه**، ص 124.

[6] – ابن باديس : **المرجع نفسه**، ص 125.

خاتمة:

يلتقي ابن نبي مع محمد عبده وعبد الحميد بن باديس في الإيمان بالمسائل الدينية الكبرى والنظر إليها على أنها مصدر القوة وينبوع الحضارة، ولكنهم يختلفون كما هو الحال في مؤلفاتهم وأقوالهم في طريقة المعالجة والاستدلال، كما يلتقون في أنهم يتألمون كثيرا على حالة العالم الإسلامي الراهنة حيث يسود الاضطراب الفكري والانحلال الخلقي والتبعية المذلة للغرب، مع أنه (أي العالم الإسلامي) لا تنقصه الوسائل والأدوات والإمكانات البشرية والطبيعية، وفي أنهم مفكرون ناقدون اطلعوا على ما حواه التراث العربي الإسلامي واستنتجوا منه ما يخدم الفكر الإسلامي المعاصر وما يطوره، تجلى هذا في نظراتهم للإنسان والكون والحياة، وفي جمعهم للناحيتين العقلية والنفسية في الخطاب الديني.

ويختلفون في أن ابن نبي ينظر إلى القضايا الدينية من خلال آثارها الاجتماعية والنفسية ولا يدرسها دراسات أكاديمية نظرية بحتة، أما محمد عبده وابن باديس فيعالجانها وفق منهجية مرتبة وأسلوب علمي مع الاستدلال لكل مسألة بأدلة قرآنية وعقلية وذلك لأن دراساتهما كانت دروسا ألقياها في المساجد والمراكز والأندية الثقافية، كما كانت مقالات نشرت في الصحف والجرائد، وإضافة إلى هذا فابن نبي كان يؤلف ويكتب باللغة الفرنسية مما يبين تميز إطار فكره وقالب ثقافته، بينما محمد عبده وابن باديس كتبا باللغة العربية.